

الطب الوقائي عند العرب

مارس العرب الطب بجميع فروعه ، فكان حرياً بهم أن يمارسوا الطب الوقائي ، لا سيما وان النجاح الذي أحرزوه في بعض المعالجات جعلهم يضاعفون اهتمامهم لتجنب الأمراض والوقاية منها . وقد قالوا : إن درهماً من الوقاية خير من قنطار من العلاج . ومع ذلك فإن تمتعاً أمر جعل الطب الوقائي لم يكتمل بشكل واضح لديهم وهو عدم توصلهم إلى اكتشاف الجراثيم المسببة للأمراض . فطالما لم يعرفوا أن للمرض عاملاً يسببه فعلاّم الوقاية ومم يتوقون ؟

غير أن الأمر يختلف عن القول المطلق ، ذلك أنهم توصلوا بالتجربة إلى تأثير النظافة ، في شفاء الأمراض ، وعرفوا العدوى وانتقالها ، واهتموا بحفظ الصحة للتغلب على المرض ، رغم أنهم كانوا يعملون بنظرية الأخلاط ، وهي أن الأمراض تنشأ عن اختلاف الأخلاط التي يتكون منها الجسم حسب رأيهم . ونظرية الأخلاط هذه نظرية قديمة تنص على أن الجسم له سبعة مظاهر طبيعية هي العناصر والأخلاط والأمزجة والأعضاء والصفات والوظائف والأرواح . وان الأخلاط أربعة هي الدم والبلغم والمرّة الصفراء والمرّة السوداء . وعندما تضطرب هذه الأخلاط تركيباً وتجانساً بالنسبة للأعضاء والوظائف يحدث المرض ولا علاج له إلاّ تعديل هذه الأمزجة ، ولا وقاية منه إلا بتدبير صحة الجسم بشكل يتفق والحالة الطبيعية للأخلاط ، كأن يكون الأمر متعلقاً بالطعام والشراب والحركة والسكون والنوم واليقظة واحتباس السوائل في الجسم واستفراغها منه . أما ما يزيد عن ذلك فهو أمرٌ يتعلق بإرادة الله وهو إيمان لا سبيل للشك أن يتطرق إليه . وان الوقاية تكون بمنع المرض بالوسائل الصحية والغذاء الموافق ، وبمحافظة أخلاط الجسم في حالة التوازن .

م (٣)

— ٢٦٩ —

وكيفما كانت النظريات المفسرة لنشوء الأمراض فإن الطب الوقائي عند العرب قائم على أسس صحيحة يقرها العلم الحديث تماماً. ويمكن تفصيل ذلك بالقاء نظرة إلى الأصول الثلاثة التي يتكون منها الطب الوقائي وهي: الصحة البدنية والصحة الاجتماعية والصحة الوقائية في الأوبئة والأمراض السارية.

أولاً — الصحة البدنية: ويطلق عليها قواعد حفظ الصحة وهي مما أعاره العرب أهمية كبيرة، فقد روى ابن أبي أصيبعة في عيون الأنبياء أن عضد الدولة عندما دخل بغداد كان أول من لقيه من الأطباء اثنان هما سنان بن ثابت وأبو الحسن الحراني، وهما طبيبان فاضلان، فلما دخلا عليه في مجلسه قال: من هؤلاء؟ قالوا هؤلاء الأطباء. قال نحن في عافية وما بنا حاجة إليهم. فانصرف الطبيبان خجلين. فلما خرجا إلى دهليز القصر قال سنان لأبي الحسن: هل يجمل بنا أن ندخل إلى الملك فيردنا ونحن شيخا ببغداد؟ فقال أبو الحسن: فما الحيلة؟ قال نرجع إليه وأنا أقول ما عندي وننظر ماذا يكون الجواب. قال افعل. فاستأذنا ودخلا ثانية إليه فقال سنان: أطال الله بقاء مولانا الملك إن موضوع صناعتنا حفظ الصحة لا مداواة الأمراض. والملك أحوج الناس إليه. فقال له عضد الدولة: صدقت. وقرر لهما راتباً وصاروا ينوبان مع أطبائه.

وقد أكثر الأطباء العرب من الكتابة في علم الوقاية وحفظ الصحة، حتى أن لا أقل من ثلث مؤلفاتهم كانت في هذه المواضيع، وقليل منهم من لم يكتب كتاباً أو رسالة في هذا البحث. حتى إن علي بن المجوسي ذكر أن حفظ الصحة أجل من معالجة المرض، لأن الصحة في الأصحاء موجودة وفي المرضى معدومة، وحرز الشيء الموجود أجل من طلب الشيء المفقود. وقد قدّم بحث حفظ الصحة إلى ثلاثة أقسام أحدها: حفظ صحة الأبدان الصحيحة. والثاني: حفظ صحة الأبدان الضعيفة التي تحتاج إلى إنعاش. والثالث: حفظ صحة الأبدان التي قد أضررت على الوقوع في

الأمراض والتحرز من نزولها بها . وقد خصص في كتابه المسمى كامل الصناعة الطبية ٣١ فصلاً في حفظ الصحة وبحوثها مستفيضاً . وقد أثار الرياضة البدنية أهمية كبيرة ، فقال إن الرياضة من أفضل ما يستعمله الإنسان في حفظ الصحة ، وأعظمها منفعة إذا كانت قبل الغذاء ، وذلك انها تقوي الأعضاء وتصلبها وتحمل الفضول التي تبقى في الأعضاء من الغذاء . وكلما كانت الرياضة أقوى كان الهضم أجود وأسرع ، ويذكر دليلاً على ذلك ما يرى من صحة أبدان أصحاب الكدّ والتعب وقلة ما يعرض لهم من الأمراض . وهو يوصي بعدم اللجوء إلى الرياضة بعد الأكل مباشرة عندما يكون الطعام في المعدة لئلا ينحدر إلى الأمعاء قبل انهضامه جيداً .

ومما قاله الأطباء العرب عن الاستحمام أن يكون بعد الرياضة ولا أن يكون بعد الطعام . وأوصوا بعدم الأكل بعد الاستحمام ، وأن يكون ذلك معتدلاً فيه .

وقالوا عن تدير الصحة بالغذاء أن لا يكثر الإنسان من الطعام . وقالوا ان من كان الطعام عنده بطيء الانحدار عن المعدة والأمعاء ينبغي أن يتوقى الأطعمة القابضة والغلظية . ونصحوا باجتناّب شرب الماء وقت تناول الأغذية لأنه يعيق الهضم .

وقالوا عن تدير صحة المرضع أن تكون المرضع بين الخامسة والعشرين وبين الأربعين من العمر ، وأن يكون بدنها صحيحاً ومزاجها معتدلاً وصدرها واسعاً . ولا تكون قريبة العهد بالولادة ولا بالبعيدة منه ، وتغذى تغذية جيدة باللحوم والفواكه والسكريات وأن لا تكون حاملاً لأنها إن حملت كان ذلك ضرراً بالطفل لأن الدم الجيد ينصرف في غذاء الجنين ويبقى الحليب ناقصاً ومضطرباً .

وتتفق النظافة وتعاليم الدين ، فالوضوء خمس مرات يومياً ، والطهارة بالماء ، والصلاة التي هي رياضة للجسم ، واستعمال المسواك بعد الأكل ، كل

ذلك من القواعد الأساسية في حفظ الصحة عند العرب . بل إن النظافة (وهي من الإيمان) ، وإزالة الأقدار ، يمكن أن يكون ذلك وحده علاجاً لبعض الأمراض كما في الحادثة التالية التي رواها ابن أبي أصيبعة وهي أن الطبيب العربي عبد الملك بن زهر كان في وقت مروره إلى دار أمير المؤمنين بأشبيلية يجد في طريقه ، عند حمام أبي الخير ، مريضاً وقد كبر جوفه واصفر لونه ، فكان يشكو إليه حاله ويسأله النظر في أمره . فلما كان بعض الأيام وهو في طريقه سأله مثل ذلك السؤال ، فوقف ابن زهر عنده ونظر إليه فوجد عند رأسه إبريقاً عتيقاً يشرب منه الماء ، فقال له اكسر هذا الإبريق فإنه سبب مرضك . فقال لا بالله يا سيدي فليس لي غيره . فأمر بعض خدمه بكسره فكسره وإذا فيه ضفدع . فقال له خلصت يا هذا من المرض وتشافى الرجل بعد ذلك .

ثانياً - الصحة الاجتماعية : ويقصد بها المحافظة على صحة المجتمع عامة من الأمراض . وكان العرب يفرضون رقابة شديدة على الأسواق والمحلات العامة وحيوانات الأغذية ويوكلون هذه المراقبة الصارمة إلى المختصين ، ويدعون العمل الذي يقوم به بالحسبة ، وهي إلزام أصحاب الصنائع بكف الأذى عن الناس واتباع النظافة وعدم الغش . ومن ذلك ما يذكره ابن عبدون الأندلسي من أنهم يولون العناية بنظافة الطرق ، ويمنعون الناس من طرح الأوساخ أو إراقة الماء فيها ، ويمنعون الصباغين من عملهم في الأسواق والطرق الضيقة لئلا يتلوث لباس المارة .

ومنها أيضاً مراقبة الطحانين وإلزامهم بقرينة القمح وتنقيته قبل الطحن ، ومراقبة الخبازين وأن لا يمجن أحدهم إلا وهو ملثم لئلا يتطاير من فمه شيء إذا عطس أو تكلم . وأن يشد على جبينه عصابة بيضاء كي لا يعرق فيقطر منه شيء فوق العجين ، وأن يحلق شعر ذراعيه حتى لا يسقط منه شيء فيه ، وإذا عجن في النهار فليكن عنده إنسان بيده مذبة يطرد عنه الذباب .

ومنها كذلك مراقبة الجزارين ومنعهم من الذبح على أبواب دكا كينهم بل في مذبح خاص ، وكانوا ينهون الأبخر (وهو ذو الرائحة الكريهة في الفم) من النفخ في الشاة عند سلقها . ويأمرونهم بأن يزلوا لحوم الماعز عن لحوم الأغنام . وأن يخضبوا لحم الماعز بالزعفران ليميزوه عن غيره ، وأن تكون أذنا الماعز معاقبة على لحومها عند البيع . ويأمرونهم إذا فرغ أحدهم من بيع اللحم أن يأخذ ملحاً مسحوقاً وينشره على القرمة التي يقصب عليها اللحم لئلا تتمغن أو تدود . وكانوا يمنعونهم من بيع لحم الميتة أو المريضة أو اللحم المتغير اللون . وإن شك المحتسب في الحيوان هل هو ميتة أو مذبوح اختبر اللحم بالماء فان طفئ فهو ميتة وإن رسب فهو مذبوح . ونظراً لما لاحظوه من أن البقر والدجاج يأكل الأقدار فقد نهوا عن أكل لحمه أو شرب لبنه إلا بعد حبسه وإطعامه طعاماً طاهراً مدة حتى يطيب لحمه ولبنه .

ومنها مراقبة أصحاب حوانيت الأغذية المعروفة آنذاك كالحلوانيين والشرابين واللبانيين والشوائين وقلائي السمك ، وأصحاب معاصر الشيرج (دهن السمسم) . وكذلك السقائين ، وكان عمل المحتسب إذ ذاك كما يقول الأندلسي أن يجرد السقائين موضعاً يصنعون فيه قنطرة من ألواح فيستقون منها . ولا يتسنى لأحد أن يشاركهم فيه خوفاً من تلوث الماء ، ولا أن يقترب من الموضع أحد للاغتسال وغسل الثياب . كما أنهم يمنعون بيع ثياب المرضى في الأسواق خوفاً من نشر العدوى بين الناس .

ثالثاً — الصحة الوقائية في الأوبئة والأمراض السارية: وكان العرب قد وصلوا

إلى اكتشاف العدوى وذكروها في كتبهم بعد دراسة وتجربة . فابن سينا أشار إليها في قانونه وإلى انتقال الأمراض بالماء والتراب ، وذكر العدوى في مرض السل الرئوي . كما أن الرازي ذكر العدوى الوراثية ووصف داء الجدري والحصبة والعدوى بها .

وتعرض محمد بن أبي بكر بن القيم لمدوى السل أيضاً وقال بأنه يعدي إذا كانت الطبيعة سريعة الانتقال قابلةً للاكتساب من أبدان تجاوره وتخالطه . وهو يقسم المدوى إلى ثلاثة أقسام : عدوى بالتماس وعدوى بالهواء وعدوى بالوهم . أما ابن الخطيب الأندلسي فقد جزم بوجود العدوى ، مع أن هذا الجزم كان يومئذ مخالفاً للشرائع الدينية ، فقد لاحظ مراراً أن من خالط المرضى المصابين بمرض سارٍ ابتلي به ، ومن لم يخالطهم نجا من العدوى . ووضع الطبيب العربي ابن البيطار رسالة دعاها (مقنعة السائل عن المرض الهائل) دافع فيها عن نظرية المدوى بمناسبة انتشار مرض الطاعون في أوروبا في منتصف القرن الرابع عشر ، ووقوف أوروبا حياله مكتوفة الأيدي .

وقد وضع العرب أول نظام للحجر لمنع انتشار الأوبئة . ويري لنا التاريخ أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وجماعة من أصحابه كانوا مرة قد عقدوا العزم على زيارة الشام . وبينما هم في طريقهم إليها بلغهم أن طاعوناً ظهر فيها . فاستشار عمر المهاجرين والأنصار فاختلّفوا بين ناصح في المضي وناصح في الرجوع . وعندما أظهر أكثرهم الرغبة في الرجوع قال أبو عبيدة لهم : أفراراً من قدر الله ؟ فقال عمر : نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله ، أرايت لو كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان إحداها خصبة والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقضاء الله ؟ وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ وإذ هم في حوارهم وجدّ لهم أقبل عبد الرحمن بن عوف فحسّم الخلاف برأي قاطع للنبي (ﷺ) وهو قوله : إذا وقع الطاعون في بلد فلا تدخلوه ، وإذا كنتم فيه فلا تخرجوا منه . وهذا هو الحجر الصحي بأجلى صورته ، وهو الشكل المتبع الآن حيث يمنع الدخول إلى المحل الموبوء لمنع الإصابة بالمرض ، ويمنع الخروج منه لحصره في منطقة معينة ، فلا ينتشر إلى المناطق الأخرى مع الخارجين .

الدكتور عادل البكري

